

في سايكولوجيا الترجمة

فلاح حكمت اسحق*

أظنهم قليلين هؤلاء الذين يتخذون الترجمة مهنةً لهم في عالمنا العربي. حتى في العالم الغربي ثمة مكابداتٌ لمن يعمل في نطاق الترجمة. ليس من اليسير أن تعمل بعقود عمل ثابتة وطويلة الأجل مع جهات مؤسساتية شاحصة لها ثقلها الثقافي والإعتباري على نطاق عالمي. لكن تبقى الترجمة مهنة في توصيفها العام سواءً كانت مهنة بعمل كامل أو جزئي، لذا ستكون خاضعة لإشتراطات ممارسة المهنة الصحيحة والمناسبة.

قلتُ أنّ الترجمة مهنة في المقام الأول، لكنّها تتعالى على الشروط اللازمة لكل مهنة، ومثلها تفعل كل مهنة يريدّها ممتعنّها أن تملأ حياته بالنشوة وشغف العمل بقلب منشرج وروح خلّاقة.

ما أبأس مَنْ يعمل في مهنة تضيفُ له هموماً متراكمة على قلبه وروحه حتى يكاد معها عقله ينفلق! لا تمضي خياراتُ الحياة دوماً هادئةً متّفقة مع ما نُمّي القلب بممارسته من المهن، وسعيدٌ دوماً هو ذاك الذي يتناغم شغفه مع مهنته. والعكس صحيح أيضاً: شقيٌّ هو ذاك الذي يعمل في مهنة يراها تطعن قلبه بخنجر مسموم حتى لو جاءت له بالكثير من المال. نعم، صادقةٌ هي العبارة الإنجيلية التي تقول: "إذ ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه". ما فائدةُ المال وأنت تقتلُ شغفك كل يوم بفعل قصدي، ثمّ تمضي لقبرك بقلب كسير وروح مثلومة؟ أيستحقُّ الأمرُ كلَّ هذا العذاب؟ لا يستحقُّ أبداً. الخبرة تقول لنا إنّه لا يستحق.

تأخذني الخيالاتُ المحلّقة أحياناً لتخوم بعيدة فأرى مشهد الخلق الأوّل. في البدء كانت الكلمة. لا بأس من تحويل العبارة مفاهيمياً لتغدو: في البدء كان الإنسان. الإنسان نظيرُ الكلمة ومترافق وجودياً معها. أرى الخالق الأكبر (ليكن إلهاً أو عنصراً طبيعياً خارق القدرة والمعرفة. لن تهمانا التكييفات اللاهوتية بشيء هنا) وهو يصنّع خلأئقه من طين أو ضوء أو من لاشيء، من العدم. يصنّع خلأئقه ثمّ يمنحهم قبلة الحياة ويهمس في أذن كلّ منهم: أنت خلقتك لتكون (كذا): طبيب أو مهندس أو معلّم أو

مُغْنٍ أو راقص باليه أو كاتب،،،،. أظنُّ أنَّ ثلاثة هُمْ مَنْ يُمضي معهم الخالق وقتاً أطول من سواهم في تشكيل هيأة الخليقة الأولى، ثمَّ يطيلُ الهمس في آذانهم: جعلتك (رياضياتياً Mathematician) أو (فيزيائياً Physicist) أو (مترجماً Interpreter). أظنني يا بنيّ و لا تُخالفُ هذا الإمتياز الذي أختصّصتهُ لك دون آخرين. إعملْ به وستكون فَرِحاً جذلاً، ولو أردتَ فتح بوابات جهنم لتندلق نارها عليك فخالف رغبتى في مهنة لن توردك سوى موارد الشقاء والهمّ والكدر.

تتشارك هذه الاشتغالات الثلاثة (الرياضيات والفيزياء والترجمة) في خواص سايكولوجية مميزة. قلت إنّها اشتغالاتٌ وليست مهناً. لا أحد مشهوداً له بالأصالة والفرادة والإنجاز الرصين في هذه الإشتغالات الثلاثة يراها محض مهنة. هي أكبر من مهنة. إنّها طريقة حياة **Way of Life** بمعنى أنّها تتعشّقُ عضواً في حياة أصحابها حدّ أنّهم يشتبكون معها ويرون فيها ملاذهم المنقذ من قسوة الحياة ودهاليزها التي تنتهي بآخرين إلى حيث اليأس غير المنتج والشلل العقلي المُطبّق والخذلان النفسي الشامل. سأقصرُ حديثي التالي على المترجم وإن كان كلّ ما يختصُّ بها يتحقق تماماً مع الرياضياتي والفيزيائي.

أول الخواص السايكولوجية هو الإستدامة الزمانية والمكانية: يعمل الطبيب أو المهندس أو المدرّس أو الأستاذ الجامعي،،، في مهنته طالما هو خارج البيت، ثمّ عندما يعودُ إلى البيت يحاول في الأعمّ الأغلب تناسي كلّ شيء يذكره بمهنته نشداناً للراحة والإسترخاء. هذا لن يحصل مع المترجم. مهنته لن تتقيّد بحدود زمان ومكان، بل ما يحصل هو أنّ التجويد الحقيقي في المهنة إنّما يحصل داخل بيته أو حتى في نطاق ملاذ صغير في بيته. عمله لا يتحدّد بساعات وظيفية أو مكان مؤشّر بمواصفات مشخّصة. عقله يعمل وهو يأكل أو يستحمّ أو يتريّض أو يقرأ.

الخصيصة السايكولوجية الثانية، وهي تنبع من الأولى وتتعلّق سببياً معها، هي أنّ شخصية المترجم لها سمات فردانية، تهوى التحليق مع الأفكار ولا ترتاح كثيراً للعمل الجماعي. هناك نقائص للمترجمين الأصلاء تتجلّى في شخصيات لا تطيق المكوث نصف ساعة لوحدها، وهي أبعد ما تكون عن معاشرة الأفكار والتلذذ بها. هؤلاء النقائص نظائر عكسية للمترجمين، لا ترتاح عقولهم سوى للعمل في بيئات مكتظة بالبشر. يبدو أنّ البشر هم من يملأ خزائهم بموارد الطاقة والإنشاء. هؤلاء لا يصلحون قطعاً لأيّ عمل ترجمي. ربّما يهوى بعضنا جرّ الأمر إلى نطاق مبحث السايكولوجيا الفردية التي تقسّم طبيعة الأفراد إلى إنبساطيين

Extrovert وإنطوائيين **Introvert**، وقد تذهب أبعد من ذلك إلى حدّ وسم الإنطوائيين بسماتٍ مرَضِيّةٍ أو إعتلالات ذهانية. هذه أخاديع لا تقوى على مواجهة البحث السايكولوجي الإكلينيكي لأسباب عدّة منها: أنّ الموصوفين بالإنبساطيين أقلّ قدرة إبداعية من نظائريهم الموصوفين بالإنطوائيين كما تخبرنا الأدبيات السايكولوجية المتراكمة، وأنّ الإنطوائيين إنّما هم يرون عبثاً كثيراً وميلاً مرضياً في سلوك البشر لتبديدهم الوقت والفرص والإمكانات والموارد المادية. ما يحصل في الغالب أنّ الميَّالين للعمل الفردي يستأنسون بمساءلة أفكارهم وملاعبتها أكثر بكثير ممّا يفعلون مع البشر. هذه المساءلة الإستكشافية هي المنبع وراء الكثير من الإبداعات الخلّاقة المعروفة في تاريخنا الإنساني. لا أعتقد أنّ مَنْ إستطاب كثرة اللهو وتبديد الوقت ستكون له المقدرة النفسية والعقلية لتحقيق إنجازٍ يُشارُ له بالتميّز والفرادة والرصانة.

الخصيصة السايكولوجية الثالثة هي التحليق نحو التخوم المعرفية **Pioneering Knowledge**، والسعي نحو المداخلة بين الإشتغالات المعرفية **Interdisciplinarity**. هذه الخصيصة هي جوهر فعل الثقافة التي تنطوي عليها الترجمة. كلّ من عمل في الترجمة الحقيقية (وليس التلفيقية). كلّ يعرف نفسه

وهو أخبرُ بها من سواه) يدركُ تلك الأوقات الجميلة التي تدفعه في ثناياها عبارةً أو مفردة لمتابعتها في سلسلة من السعي البحثي الذي يغدو فيه المترجم كما الفراشة تحوم حول مفهوم جديد أو متابعة تفصيلية أو حيثية محدّدة. قد يحصل كثيراً أنّ ترجمة عبارة لا تزيد عن بضع كلمات قد تقود المترجم إلى أن يمضي يوماً بأكمله في متابعة تلك العبارة ومكوّناتها، وقد يقود البحث الحاسوبي إلى إنفتاح آفاق جديدة تقود لمعرفة شخصيات تاريخية جديدة أو وقائع جديدة. أحبُّ كثيراً هذا التنقيب الإستكشافي الجانبي المقترن بالعمل الترجمي وبخاصة عندما يقترنُ بنزعة سرنديبية **Serendipity** تعثر فيها -بمحض مصادفة طيبة- على معرفة ما كنتَ تظنّ نفسك بالغها. أرى في هذا الأمر بعضاً من جائزة الترجمة التي تنطوي على صناعة ثقافة حقيقية.

الخصيصة السايكولوجية الرابعة هي السعي لتحقيق فهم **Understanding** أفضل لما نقرأ. تشيّع في دراسات التعلّم ظاهرة تسمّى تأثير التابع **Protégé Effect**. جوهر هذا التأثير هو أنّك لو أردتَ تحقيق فهم طيب لما تقرأ فاعمل على تعليم ما تقرأ لطرف آخر (أو حتى ناقشه مع طرف غير بشري. روبوت مثلاً). شعورك بتعليم طرف آخر يستوجبُ منك قدراً غير قليل من الشعور بالمسؤولية المهنية والأخلاقية التي قد لا تتحقّق لو

إِكتفيتَ بالقراءة العادية **Passive Reading**. ثمّة نظير شائع لهذا التأثير في عالم الترجمة: لو أردتَ فهم نصّ ما فترجمه. الترجمة -مثل التعليم- تستوجبُ قدرًا غير قليل من المسؤولية وتبعات تحويل النص المكتوب بلغة ما إلى نص مقروء بلغة أخرى.

الخصيصة السايكولوجية الخامسة هي **الولعُ الطاغي بحبّ اللغات وتعلّمها**. لا يخدعنكم من يتحدّث عن الرياضيات والفيزياء بكونهما عذاباً تقنياً أعَدّ للبشر. كلّاً أبداً. إنّهما لغتان مكتوبتان بكيفية متمايزة عن النطاق الرمزي (الحروفي الألفبائي) الذي تتشكل منه اللغات. كلّ من تعلّم (أو يسكنه حبّ تعلّم) لغات عديدة - وبخاصة في بواكير حياته الأولى- إنّما يطرّوّر في دماغه **لدونة عصبية Neuroplasticity** ستعيّنه في سنواته اللاحقة وتكون عاصماً له من داء ألزهايمر الخبيث واعتلالات عصبية دماغية أخرى. الترجمة وتوابعها في حبّ اللغات إستثمارٌ حقيقي في الصحة العقلية والنفسية والروحية.

ربما يتساءل كثيرون في خوف واستنكار: وما فائدة العمل بما يمليه عليك شغفُ قلبك لو أنّ تسونامي الذكاء الإصطناعي سيأتي

عليه؟ جوابي ببساطة: وهل لو عملت في غير ما تشغف فيه ستكون في مأمن من هذا التسونامي؟ هذا جواب وظيفي مباشر لا أستسيغه. الأصحّ هو القول أنّ شغفك سيفتح لك أبواباً ظننتها مغلقة، وستعرف كيف تتعامل مع الذكاء الإصطناعي بطريقة يرتاح لك فيها أكثر مما يفعل مع الكسولين غير المسكونين بالشغف.

لو كنت مترجماً حقيقياً فلا تنسَ مشهد النشأة الأولى. لا تنسَ همسة الخالق في أذنك. ذاك أفضل كثيراً من حياة مبتورة تحياها بقلب كسير وروح مخدولة. لا تخسر حياتك. لا شيء في الكون يستحقّ أو يستوجب هذه الخسارة.

* كاتب ومهندس عراقي